جريمةُ الـهَالوِين.

الكاتبة : أزلماض خديجة

الفصل الأول .



لم تكن لاس فيغاس مدينةً تنام، بل مدينةً تتظاهر بالنوم حين ينفد الضوء من واجهاتها، ثم تستيقظ في هيئة أخرى، أكثر صخباً وأشد غرابة. كانت تعرف كيف تخفي تعبها خلف آلاف المصابيح، وكيف تمنح الغرباء شعوراً زائفاً بأن كل شيء ممكن، حتى الأشياء التي لا ينبغي أن تحدث.

في مساء الحادي والثلاثين من أكتوبر، بدت المدينة كأنها خرجت من حلم مضطرب. امتدت الزينة البرتقالية والسوداء على واجهات المتاجر، وتدلّت من الشرفات هياكل عظمية بلاستيكية، بينما ازدحمت الشوارع بأشخاص ارتدوا أقنعة شتى؛ وجوه مخيفة، وأخرى ساخرة، وثالثة لا يمكن تمييز أصحابها حتى لو مرّوا بجانبك ألف مرة.

في أحد الأحياء الهادئة نسبياً، بعيداً عن صخب شارع لاس فيغاس الرئيسي، كان منزل من طابقين يقف عند نهاية شارع تحفّه أشجار جرداء. لم يكن المنزل مميزاً في شيء، باستثناء نافذته العلوية الكبيرة التي تطل على الشارع، وشرفة صغيرة تحيط بها قضبان حديدية سوداء.

هناك كانت تسكن أربع فتيات.

إيفلين هاريس، ذات الأعوام الأربعة والعشرين، طالبة الطب التي اعتادت أن تضع الكتب فوق بعضها حتى تكاد تسقط من مكتبها. كانت قليلة الكلام، حادة الملاحظة، وتملك قدرة غريبة على تذكّر التفاصيل التي ينساها الآخرون.

كلارا ميتشل، ثلاثة وعشرون عاماً، مصورة فوتوغرافية، كانت ترى في العالم ما لا يراه سواها. تؤمن بأن الصور لا تكذب، وإن كان أصحابها يفعلون ذلك باستمرار.

أما ناتالي مورغان، ذات الخمسة والعشرين عاماً، فكانت أكثرهن اجتماعية، تعمل في متجر صغير لبيع

التحف القديمة، وتعرف كيف تحول الصمت المحرج إلى حديث عابر.

وكانت صوفيا براون قد غادرت قبل يومين إلى سان دييغو لزيارة عائلتها.

لم تكن الفتيات الأربع صديقات بالمعنى الذي يجعل المرء يعرف كل شيء عن الأخرى. لقد جمعتهن ظروف السكن، ثم جمعت بينهن سنوات من الألفة والمواقف اليومية، غير أن لكل واحدة منهن مساحة خاصة لا تسمح لأحد باجتيازها.

في ذلك المساء، كانت ناتالي تقف أمام المرآة في غرفتها، تحاول تثبيت قرني شيطان صغيرين فوق شعرها، حين سمعت صوت كلارا من الطابق العلوي:

ـــ ناتالي! هل رأيتِ سترتي السوداء؟

أجابت وهي تضع أحمر الشفاه:

ـــ لو كنتِ ترتبين أغراضك مرة واحدة في حياتك، لما اضطررتِ إلى البحث عنها كلما خرجتِ!

ضحكت كلارا.

ـــ أعتبر ذلك إجابة بالنفي.

ظهرت إيفلين عند أعلى الدرج، تحمل هاتفها بيد، وكوباً من القهوة باليد الأخرى.

ـــ هل ستذهبان حقاً إلى الحفلة؟

رفعت ناتالي رأسها نحوها.

ـــ إنها ليلة الهالوين. ماذا كنتِ تتوقعين؟ أن نقضيها في قراءة كتب التشريح؟

ـــ لا أرى في ذلك اقتراحاً سيئاً.

ـــ بالطبع لا ترين. أنتِ قادرة على قضاء ليلة كاملة في النظر إلى جمجمة.

ابتسمت إيفلين ابتسامة خفيفة، ثم انصرفت نحو غرفتها.

كانت ناتالي تراقبها حين لاحظت أن هاتفها يهتز فوق الطاولة. ظهر اسم المتصل على الشاشة: أليكس ريد.

كان أليكس صديقهن المشترك منذ سنوات، وأكثر الأشخاص قرباً من إيفلين وكلارا. لم يكن كثير الظهور في المنزل، لكنه كان يعرف طريقه إليه كما يعرف المرء طريقه إلى بيته. اعتاد أن يأتي في الأمسيات الباردة حاملاً القهوة، وأن يجلس معهما لساعات يتحدثون عن أشياء لا تهم أحداً سواهم.

أجابت ناتالي عن المكالمة.

ـــ مساء الخير، أليكس.

ـــ أين الفتاتان؟

ـــ تستعدان للخروج. هل تريد إحداهما؟

سكت لحظة قبل أن يقول:

ـــ كلتاهما، في الحقيقة. هل هما في المنزل؟

ـــ إيفلين في غرفتها، وكلارا تبحث عن سترتها التي تضيع كل أسبوع.

سمعت ضحكته الخافتة.

ـــ أخبريهما أنني سأمرّ لاحقاً.

ـــ هل ستأتي إلى الحفلة؟

ـــ ربما. لديّ أمر صغير أريد الحديث فيه معهما.

لم تسأله ناتالي عن طبيعة الأمر. كانت تعرف أن أليكس لا يحب الحديث عبر الهاتف عن الأشياء التي يعتبرها مهمة.

بعد نحو عشر دقائق، رن جرس الباب.

ذهبت ناتالي لفتحه، فوجدت رجلاً يرتدي معطفاً رمادياً ويحمل في يده باقة صغيرة من الزهور البيضاء.

كان ماركوس بيل.

تغيرت ملامحها للحظة، ولم تحاول إخفاء دهشتها.

— ماركوس؟

أومأ برأسه.

— مساء الخير، ناتالي.

لم يكن ماركوس شخصاً غريباً عن المنزل، وإن كان حضوره قد أصبح نادراً خلال السنوات الأخيرة. كان يعرف إيفلين وكلارا منذ زمن، لكنه انقطع عنهما فجأة، ثم اختفى عن المدينة مدة طويلة.

قالت ناتالي وهي تفسح له الطريق:

— لم أكن أعلم أنك ستأتي.

— لم أكن متأكداً من أنني سأفعل.

نظر إلى الزهور التي يحملها، ثم أضاف:

— هل هما هنا؟

— نعم. لكن...

توقفت قبل أن تكمل. لم تكن تعرف ما الذي ينبغي أن تقوله لرجل عاد بعد سنوات من الغياب، يحمل في يده زهوراً بيضاء، وفي وجهه شيئاً يشبه الاعتذار الذي لم يجد طريقه إلى الكلمات.

صعد ماركوس الدرج بعد أن أخبرته ناتالي أن الفتاتين في الأعلى.

وقبل أن يختفي، التفت إليها وسأل:

ـــ هل ما زالت النافذة في غرفة كلارا تطل على الشارع؟

عقدت حاجبيها.

ـــ أظن ذلك. لماذا؟

ـــ لا شيء. مجرد سؤال.

ثم اختفى في الطابق العلوي.

عادت ناتالي إلى غرفتها، لكنها لم تستطع تجاهل الشعور الغريب الذي تركه السؤال في نفسها.

في الحادية عشرة إلا ربعاً، كانت قد انتهت من الاستعداد، حين سمعت صوتاً مرتفعاً قادماً من الأعلى. لم تستطع تمييز الكلمات، لكنه بدا كجدال محتدم.

توقفت أمام باب غرفتها.

ثم سمعت صوت رجل يقول:

— لقد انتهى الأمر. لا يمكننا تغيير ما حدث.

أعقبه صوت كلارا، غاضباً هذه المرة:

— بل يمكننا. كان ينبغي أن نفعل ذلك منذ البداية.

ثم صوت آخر، أكثر انخفاضاً، لم تستطع ناتالي تحديد صاحبه.

بعد لحظات، دوّى صوت ارتطام قوي.

رفعت رأسها.

ـــ كلارا؟

لم يجبها أحد.

انتظرت قليلاً، ثم سمعت وقع خطوات سريعة فوقها، تلاها صمت ثقيل.

نظرت إلى هاتفها. كانت الساعة الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة.

لم تكن تعرف أن تلك الدقائق القليلة ستصبح لاحقاً محور تحقيق كامل، وأنها ستضطر إلى استعادتها في ذاكرتها مئات المرات، بحثاً عن تفصيل واحد ربما كان قادراً على إنقاذ حياة شخصين.

عادت إلى غرفتها، وأغلقت الباب.

لكن الصرخة التي شقّت سكون المنزل بعد دقائق لم تكن قابلة للتجاهل.

كانت صرخة امرأة.

ثم ساد الصمت.

الفصل الثاني .



لم تفكر ناتالي قبل أن تفتح باب غرفتها. خرجت إلى الممر، وقد تسارعت أنفاسها على نحو جعلها تشعر بأن الهواء صار أثقل من المعتاد.

كان الضوء في أعلى الدرج مضاءً.

نادَت:

— إيفلين؟

لم تسمع جواباً.

صعدت الدرج بسرعة، وتوقفت عند أول الممر. كان باب غرفة كلارا مفتوحاً قليلاً، يتسرّب من خلفه ضوء أصفر خافت.

دفعت الباب بيد مرتجفة.

كانت كلارا ملقاة قرب المكتب، على جانبها، وشعرها مبعثر فوق الأرضية. لم تكن هناك حركة في جسدها، ولم يكن في الغرفة ما يوحي بأنها ستنهض بعد لحظة لتضحك من خوف ناتالي.

على بعد خطوات منها، كانت إيفلين مستلقية قرب النافذة.

تراجعت ناتالي حتى اصطدم ظهرها بإطار الباب.

لم تصرخ في البداية. بقيت تنظر إليهما، وكأن عقلها يرفض أن يفهم ما تراه عينها. ثم انطلقت منها صرخة طويلة، متقطعة، استدعت الجيران إلى الشارع.

اتصلت بالشرطة والإسعاف، ثم جلست على الأرض عند مدخل الغرفة. كانت يداها ترتجفان بشدة، حتى إنها لم تستطع الإمساك بالهاتف جيداً.

وصلت الشرطة بعد دقائق.

كان المحقق إيثان كولنز أول من دخل المنزل. رجل في الثانية والأربعين، طويل القامة، ذو وجه متعب وعينين لا تستقران على شيء دون أن تفحصاه. أمضى سنوات طويلة في التحقيق في جرائم القتل، وكان يعرف أن أكثر ما يضلل المحقق ليس نقص الأدلة، بل الثقة الزائدة في تفسيرها.

اقترب من ناتالي.

ـــ أنتِ من اتصل بالشرطة؟

أومأت.

ـــ هل لمستِ شيئاً في الغرفة؟

ـــ لا... لا أظن ذلك.

ـــ خذي وقتك. أريدك أن تخبريني بما حدث منذ البداية.

حاولت الكلام، لكن الكلمات خرجت متعثرة.

ـــ سمعت صوتاً... كان هناك جدال. ثم سمعت شيئاً يسقط. وبعدها... لم أعد أعرف.

ـــ هل رأيتِ أحداً يغادر المنزل؟

رفعت عينيها إليه.

ـــ لا.

ـــ هل كان هناك أشخاص آخرون في المنزل؟

ترددت قليلاً، ثم قالت:

— ماركوس بيل. جاء قبل الحادية عشرة بقليل.

توقف إيثان عن تدوين ملاحظاته.

— ماركوس بيل؟

— نعم.

— هل تعرفين أين هو الآن؟

هزت رأسها.

— لا أعرف.

دخل أحد أفراد فريق الأدلة الجنائية إلى الغرفة، بينما توجه إيثان نحو النافذة. كانت مفتوحة بمقدار يسمح بدخول هواء بارد، لكن إطارها لم يحمل آثار كسر واضحة.

على المكتب، وجد ثلاثة أكواب. اثنان منهما يحملان آثار استعمال حديث، أما الثالث فكان شبه ممتلئ.

قرب حافة السجادة، التقط أحد الفنيين قطعة صغيرة من قماش أسود.

وفي درج المكتب، عُثر على مظروف بني كُتب عليه اسم ماركوس بيل بخط إيفلين.

فتح المحقق المظروف بحذر. كان يحتوي على صور قديمة، ونسخة من وثيقة قضائية، ورسالة قصيرة:

«لقد تأخرنا خمس سنوات. لم يعد الصمت خياراً.»

قرأ إيثان العبارة مرتين.

ثم سأل ناتالي:

— ما الذي حدث قبل خمس سنوات؟

لم تجب مباشرة. بدت وكأنها تبحث في ذاكرتها عن شيء دفنته منذ زمن.

ـــ كانت هناك فتاة اسمها إيزابيل موريس. ماتت بعد سقوطها من شرفة أحد المباني.

ـــ وما علاقة إيفلين وكلارا بها؟

ـــ كانتا تعرفانها. وكان ماركوس قريباً منها أيضاً.

ـــ هل كان هناك تحقيق؟

ـــ نعم. اتُّهم ماركوس بالتسبب في موتها، وشهدت إيفلين وكلارا ضده.

رفع إيثان نظره عن الأوراق.

— هل أُدين؟

— نعم. قضى سنوات في السجن.

عاد المحقق إلى الرسالة.

— ويبدو أن الفتاتين كانتا تنويان التراجع عن شهادتهما.

لم تجبه ناتالي.

كان الصمت كافياً.

في تلك الأثناء، ورد اتصال من أحد أفراد الشرطة يفيد بالعثور على سيارة ماركوس في موقف قريب من المنزل، دون وجوده داخلها.

وبعد أقل من ساعة، عُثر عليه في إحدى الحانات القريبة من وسط المدينة.

حين دخل المحقق إيثان إلى الغرفة التي كان يجلس فيها ماركوس، لم يبدُ الأخير متفاجئاً.

كان ينظر إلى كأس ماء أمامه، ويداه متشابكتان فوق الطاولة.

قال إيثان:

ـــ نحتاج إلى أن نتحدث عن إيفلين هاريس وكلارا ميتشل.

أغمض ماركوس عينيه لحظة.

ـــ ماتتا، أليس كذلك؟

ـــ كيف عرفت؟

رفع رأسه ببطء.

ـــ لأنني كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي.

ـــ هل كنت في منزلهما الليلة؟

ـــ نعم.

ـــ متى غادرت؟

ـــ قبل الحادية عشرة والنصف بقليل.

ـــ هل تشاجرت معهما؟

لم يجب فوراً.

ثم قال:

ـــ تشاجرت مع كلارا.

ـــ لماذا؟

ـــ لأنها وعدتني منذ خمس سنوات بأن تقول الحقيقة، ثم عادت إلى الصمت.

ـــ أي حقيقة؟

ضحك ماركوس ضحكة قصيرة خالية من الفرح.

ـــ الحقيقة التي دفنتني في السجن.

وضع إيثان الصور أمامه.

ـــ هل قتلت إحداهما؟

نظر ماركوس إلى الصور طويلاً، ثم دفعها بعيداً.

ـــ لا.

ـــ لديك دافع واضح، وقد كنت في مسرح الجريمة قبل وقوع الوفاة بفترة قصيرة.

ـــ أعرف كيف يبدو الأمر.

ـــ إذن ساعدني على فهمه.

رفع ماركوس عينيه إليه.

ـــ لأنني كنت أريد أن أراهما تعترفان. لم أعد أريد شيئاً آخر.

لكن المحقق لم يبدُ مقتنعاً.

ففي الجرائم، لا يكفي أن يقول المشتبه به إنه لم يفعلها. ولا يكفي أيضاً أن تكون لديه أسباب تدفعه إلى ارتكابها.

كان عليه أن يثبت أين كان، وماذا فعل، ولماذا انتهت حياة امرأتين في المنزل الذي زاره قبل دقائق من مقتلهما.

وفي الطابق العلوي، بقيت ثلاثة أكواب على المكتب.

ثلاثة أكواب، بينما لم يكن في الغرفة سوى جثتين.

الفصل الثالث .



لم تكن قضية إيفلين وكلارا مجرد جريمة قتل مزدوجة. كان الماضي حاضراً فيها على نحو لا يمكن تجاهله، وكانت أسماء الأشخاص الذين ارتبطوا بموت إيزابيل موريس تظهر في كل زاوية من زوايا التحقيق.

في صباح اليوم التالي، جلس المحقق إيثان أمام شاشة كبيرة عُرضت عليها صور الفتيات، ثم صورة ماركوس بيل، وأخيراً صورة قديمة لفتاة شابة تقف على شرفة مبنى حجري.

كانت إيزابيل موريس.

قبل خمس سنوات، عُثر عليها ميتة أسفل المبنى الذي كانت تسكنه. خلص التحقيق آنذاك إلى أنها سقطت

أثناء شجار مع ماركوس، الذي كان آخر من شوهد معها قبل الحادث.

شهدت إيفلين وكلارا بأنهما سمعتا شجاراً بينهما، وأن ماركوس كان غاضباً بصورة غير طبيعية في تلك الليلة. لم تشاهدا لحظة السقوط، لكن شهادتيهما دعمت رواية الادعاء، وأصبح ماركوس المتهم الرئيسي.

أُدين الرجل، وقضى سنوات في السجن، بينما ظلت الفتاتان تعيشان بعيداً عن القضية، حتى عادت إلى الظهور قبل أيام من مقتلهما.

كان ثمة شيء ناقص في الملف القديم.

لم تكن هناك بصمات واضحة على حافة الشرفة، ولم يثبت أن ماركوس دفع إيزابيل بنفسه. كما أن التقرير الطبي أشار إلى وجود إصابة في رأسها سبقت السقوط، لم يُحسم مصدرها.

وضع إيثان الملف جانباً، ثم طلب استدعاء ناتالي مجدداً.

دخلت غرفة التحقيق وهي ترتدي معطفاً رمادياً واسعاً، وقد بدا عليها الإرهاق.

قال لها:

— أريد أن أفهم طبيعة العلاقة بين ماركوس والضحيتين.

— كان صديقاً لهما. ثم حدثت قضية إيزابيل، وانقطع كل شيء.

— هل كانت إيفلين وكلارا تشعران بالذنب؟

— أحياناً. كنت أراهما تتحدثان عن الماضي، ثم تتوقفان بمجرد دخولي.

— هل تعرفين إن كانتا قد التقتا بأليكس ريد مؤخراً؟

تغيرت ملامحها قليلاً.

ـــ أليكس؟ بالطبع. كان يأتي إلى المنزل باستمرار.

ـــ هل كان قريباً من إيزابيل أيضاً؟

ترددت.

ـــ كان يعرفها. أظن أنه كان قريباً منها أكثر مما كان يصرح به.

دوّن إيثان الملاحظة.

ـــ هل كان يعلم أن الفتاتين تنويان كشف الحقيقة؟

— لا أعرف.

— ومتى رأيته آخر مرة؟

— قبل يومين. جاء ليطمئن عليهما.

— هل لاحظتِ شيئاً غريباً في سلوكه؟

فكرت قليلاً.

— لا. أليكس لا يتصرف بطريقة غريبة. إنه... شخص هادئ.

ابتسم إيثان ابتسامة خفيفة.

ـــ الهدوء ليس دليلاً على البراءة.

لم تعلق ناتالي.

بعد خروجها، استدعى المحقق أليكس ريد.

وصل الرجل في الثالثة بعد الظهر. كان في السادسة والعشرين، يرتدي معطفاً داكناً، وشعره مرتب بعناية. لم يبدُ مرتبكاً حين جلس أمام المحقق، بل بدا حزيناً على نحو مألوف، كأنه حضر ليؤدي واجباً ثقيلاً لا أكثر.

قال إيثان:

ـــ أريد أن أقدم لك تعازيّ.

أخفض أليكس رأسه.

ـــ شكراً.

ـــ كنت قريباً من إيفلين وكلارا.

ـــ كانتا كأختين لي.

ـــ متى رأيتهما آخر مرة؟

ـــ قبل يومين.

ـــ هل اتصلت بهما ليلة الجريمة؟

ـــ نعم. لم تجيبا.

ـــ لماذا أردت رؤيتهما؟

ابتسم أليكس بحزن.

ـــ كان بيننا حديث مؤجل.

ـــ عن ماذا؟

ـــ عن ماركوس.

رفع إيثان عينيه إليه.

ـــ ماذا عنه؟

ـــ كنت أعلم أنه عاد إلى المدينة. وحذرت الفتاتين من التواصل معه.

ـــ لماذا؟

ـــ لأنني أعرف ما حدث قبل خمس سنوات.
ماركوس رجل يحمل غضباً لا يستطيع
السيطرة عليه.

ـــ هل تعتقد أنه قتل إيفلين وكلارا؟

أطرق أليكس.

ـــ لا أريد أن أتهم أحداً دون دليل، لكنني لا
أستطيع أن أستبعده.

ـــ أين كنت ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر؟

— في منزلي.

— هل تستطيع إثبات ذلك؟

— كنت وحدي.

— هل غادرت المنزل في أي وقت؟

توقف أليكس لحظة، ثم أجاب:

— لا.

لم يدوّن إيثان شيئاً. اكتفى بالنظر إليه.

— هل تعرف أن ناتالي سمعت صوت رجل في الطابق العلوي؟

— لا.

— وهل تعرف أن هناك ثلاثة أكواب في غرفة كلارا؟

رفع أليكس حاجبيه.

ـــ ثلاثة؟

ـــ نعم.

ـــ ربما كان ماركوس قد أحضر شخصاً معه.

كانت الإجابة سريعة، لكنها لم تكن مستحيلة.

أغلق إيثان الملف.

ـــ شكراً لك. قد نحتاج إلى استدعائك مجدداً.

حين غادر أليكس، بقي المحقق ينظر إلى الباب لثوانٍ.

كان الرجل متعاوناً، لم يتهرب من الأسئلة، ولم يظهر عليه خوف واضح. ومع ذلك، لم يشعر إيثان بالارتياح.

لم يكن لديه ما يكفي لاعتباره مشتبهاً رئيسياً.

أما ماركوس، فقد كانت الأدلة تشير إليه من كل جانب.

في المساء، عُثر على تسجيل كاميرا مراقبة من متجر يقع على بعد شارعين من منزل الضحيتين. ظهر ماركوس في التسجيل عند العاشرة وثمانٍ وخمسين

دقيقة، وهو يدخل الشارع المؤدي إلى المنزل. وبعد نحو أربعين دقيقة، ظهر رجل يرتدي سترة داكنة يغادر من الجهة الخلفية للشارع.

لم تكن ملامحه واضحة.

لكن طوله وبنية جسده يشبهان ماركوس.

كان ذلك كافياً ليطلب المحقق مذكرة تفتيش لمنزله.

وفي غرفة نوم ماركوس، عثروا على قميص أسود يحمل بقعة بنية داكنة، وعلى هاتف قديم يحتوي على رسائل متبادلة بينه وبين كلارا.

كانت إحدى الرسائل الأخيرة تقول:

«لن أترك الأمر ينتهي كما بدأ. ستعرف الحقيقة هذه المرة.»

أما رد كلارا، فكان:

«تعال الليلة. لا أريد أن أتحدث عبر الهاتف.»

قرأ إيثان الرسالة بصمت.

ثم قال لأحد الضباط:

ـــ يبدو أننا وجدنا ما كنا نبحث عنه.

لكن ما لم يكن يعرفه بعد، أن الشخص الذي كان يتمنى أن يجد عليه دليلاً لم يكن قد أخفى شيئاً في منزله.

وأن الشخص الذي كان يقف إلى جانبه منذ بداية التحقيق، لم يكن بحاجة إلى إخفاء الأدلة.

لأنه كان يعرف تماماً أين يبحث المحقق عنها.

الفصل الرابع .



كان التحقيق يتقدم، لكن إيثان لم يكن مقتنعاً بأن القضية قد أصبحت واضحة كما بدا للآخرين.

لقد تعلم خلال سنوات عمله أن الأدلة قد تكون صادقة، بينما تكون الرواية التي تُبنى حولها كاذبة.

كان القميص الذي عُثر عليه في منزل ماركوس يحمل بقعة دم، لكن الفحص الأولي لم يثبت أنها تعود إلى إحدى الضحيتين. كما أن رسائل كلارا لم تكن دليلاً على القتل، بل على موعد سابق بينهما.

أما التسجيل المصور، فلم يكن واضحاً بما يكفي لتحديد هوية الرجل الذي غادر الشارع.

ومع ذلك، ظل ماركوس المشتبه به الأقوى.

في تلك الليلة، عاد إيثان إلى المنزل الذي وقعت فيه الجريمة. كانت الأشرطة الصفراء قد أزيلت، لكن المكان لم يستعد حياته القديمة. ظل الهواء بارداً، والنوافذ مغلقة، والدرج المؤدي إلى الطابق العلوي يبدو أطول مما كان عليه في المرة الأولى.

وقفت ناتالي عند مدخل المطبخ حين رأته.

— هل وجدتم شيئاً؟

— ربما.

— هل كان ماركوس؟

لم يجب.

صعد إلى غرفة كلارا، ووقف أمام المكتب. كانت الأكواب الثلاثة قد أُرسلت إلى المختبر، لكنه طلب إعادة صورها.

نظر إلى مواضعها.

كوب قرب الكرسي، وآخر بجوار النافذة، والثالث في منتصف المكتب.

سأل ناتالي:

ـــ هل كانت كلارا تضع أكوابها بهذه الطريقة؟

ـــ لا. كانت تترك كل شيء حيثما انتهت منه.

ـــ هل كانت تستقبل ضيوفاً كثيراً؟

ـــ أحياناً. لكن ليس في تلك الليلة، على حد علمي.

ـــ هل رأيتِ أليكس في المنزل قبل أن تكتشفي الجثتين؟

ترددت.

ـــ لا.

ـــ هل تعرفين إن كان قد جاء؟

ـــ قال إنه سيأتي لاحقاً.

ـــ هل وصل؟

هزت رأسها.

ـــ لم أره.

تأمل إيثان الغرفة مرة أخرى.

ـــ هل كانت هناك كاميرا في المنزل؟

ـــ كاميرا صغيرة في المدخل. اشترتها كلارا بعد أن فُقدت بعض أغراضنا.

ـــ أين تسجيلها؟

ـــ لا أعرف. أظن أنها كانت متصلة بالإنترنت.

أخرج إيثان هاتفه واتصل بفريق الأدلة الرقمية.

بعد ساعات، تمكنوا من استعادة جزء من التسجيلات المحذوفة. لم تكن الكاميرا تغطي الطابق العلوي، لكنها كانت تسجل المدخل والدرج.

ظهر ماركوس وهو يدخل المنزل في العاشرة وسبع وأربعين دقيقة.

وبعد اثنتين وعشرين دقيقة، ظهر وهو يغادر.

ثم، بعد فترة قصيرة، ظهر شخص آخر يدخل المنزل.

كان يرتدي معطفاً داكناً، ويضع قبعة تخفي جزءاً من وجهه.

توقفت الصورة عند لحظة دخوله.

سأل إيثان الفني:

ـــ هل يمكن تحسينها؟

ـــ نحاول.

اقترب من الشاشة.

لم يكن الشخص ماركوس. كان أطول بقليل، وأقل عرضاً في الكتفين.

قال الفني:

ـــ هناك شيء آخر.

أعاد المقطع إلى الوراء.

ظهر الرجل وهو يفتح الباب، ثم يلتفت إلى الخارج قبل أن يدخل. كانت يده اليسرى تحمل شيئاً صغيراً، ربما مفتاحاً.

قال إيثان:

ـــ أعدها.

تكرر المشهد.

ثم لاحظ المحقق أن الرجل لم يستخدم جرس الباب، ولم يطرق. لقد فتح الباب مباشرة.

كان يملك مفتاحاً.

استدعى إيثان ناتالي وسألها:

— من كان يملك نسخة من مفتاح المنزل؟

— نحن الأربع. وصوفيا. وأليكس كان يملك نسخة أيضاً.

— وماركوس؟

ـــ لا أظن.

ـــ لماذا؟

ـــ لم يعد إلى المنزل منذ سنوات. لا أعتقد أن الفتيات كنّ سيعطينه مفتاحاً.

عاد المحقق إلى الشاشة.

ـــ إذن لدينا شخص دخل المنزل بمفتاح، بعد مغادرة ماركوس.

كانت تلك أول مرة يتجه فيها التحقيق بعيداً عن الرجل الذي بدا أنه يملك كل الدوافع.

وفي صباح اليوم التالي، وصلت نتيجة تحليل الأكواب.

كانت البصمات الموجودة على الكوب الثالث تعود إلى أليكس ريد.

لم يبدُ ذلك غريباً في البداية. فقد كان صديقاً مقرباً من الفتاتين، ومن الطبيعي أن يشرب القهوة في منزلهما.

لكن إيثان تذكر شيئاً.

في إفادته الأولى، قال أليكس إنه لم يزر المنزل منذ يومين.

أما التسجيل فقد أثبت دخوله بعد مغادرة ماركوس، ليلة الجريمة.

حين استدعاه مجدداً، لم يبدُ عليه الارتباك.

قال أليكس:

— نعم، جئت إلى المنزل.

— لماذا لم تخبرني بذلك من البداية؟

ـــ لأنني لم أكن أريد أن أكون جزءاً من هذه القضية.

ـــ لقد قُتلت صديقتاك.

ـــ ولهذا السبب تحديداً لم أرد أن أكون جزءاً منها.

ـــ دخلت المنزل بمفتاحك، وجلست معهما، ثم غادرت. لماذا؟

أخفض أليكس رأسه.

ـــ كانت كلارا قد اتصلت بي. قالت إن لديها شيئاً مهماً تريد أن تخبرني به.

ـــ وماذا كان؟

ـــ لا أعرف. حين وصلت، لم أجد أحداً. ظننت أنهما خرجتا، فغادرت.

ـــ هل رأيت ماركوس؟

ـــ لا.

ـــ هل دخلت غرفة كلارا؟

ـــ لا.

وضع إيثان صورة الكوب أمامه.

ـــ بصماتك على هذا الكوب.

نظر أليكس إليه.

ـــ ربما شربت منه في زيارة سابقة.

ـــ أنت قلت إنك لم تزر المنزل منذ يومين.

لم يجب.

مال المحقق إلى الأمام.

ـــ أليكس، أريد أن أفهم لماذا أخفيت زيارتك.

رفع الرجل عينيه إليه.

ـــ لأنني كنت أعلم أنكم ستظنون أنني فعلت شيئاً.

ـــ وهل فعلت؟

ساد الصمت.

ثم قال أليكس:

— لا.

كان صوته هادئاً إلى درجة أثارت في نفس إيثان شعوراً غير مريح.

لم يكن الهدوء دليلاً على البراءة.

ولم يكن الاعتراف بالتناقض دليلاً على الذنب.

لكن ثمة شيء في القصة لم يكن يستقيم.

إذا كان أليكس قد دخل المنزل بعد مغادرة ماركوس، فلماذا لم يخبر ناتالي بذلك؟ ولماذا كذب بشأن موعد زيارته؟ ولماذا كان الكوب الثالث في منتصف المكتب، بينما قالت ناتالي إن كلارا لم تكن تتوقع استقبال أحد؟

خرج أليكس من غرفة التحقيق، وبقي إيثان يراقب الباب.

كان قد وجد الآن سبباً للاشتباه فيه.

لكنه لم يكن قد وجد بعد سبباً يربطه بالقتل.

وفي مساء ذلك اليوم، وصل تقرير إضافي من المختبر.

لم يكن الدم الموجود على قميص ماركوس يعود إلى إيفلين أو كلارا.

كان دماً حيوانياً.

أما قطعة القماش السوداء التي عُثر عليها في غرفة كلارا، فقد تطابقت أليافها مع معطف أليكس.

للمرة الأولى، شعر إيثان أن القضية التي ظن أنه فهمها بدأت تتكشف من جديد.

الفصل الأخير .



لم يكن أليكس ريد رجلاً يسهل تخيل ارتكابه جريمة قتل.

كان من أولئك الذين يتركون انطباعاً طيباً دون أن يبذلوا جهداً واضحاً في ذلك. لا يرفع صوته، ولا يتدخل في شؤون الآخرين، ويملك موهبة الإصغاء التي تجعل الناس يعتقدون أنهم مفهومون على نحو نادر.

ولهذا السبب لم يكن أحد قد شك فيه منذ البداية.

لكن المحقق إيثان لم يعد يرى فيه الصديق الحزين الذي حضر لتقديم التعازي.

كان يرى رجلاً دخل منزلاً بعد منتصف الليل تقريباً، بمفتاح يملكه، ثم أنكر دخوله. ورجلاً تركت ألياف معطفه في مسرح الجريمة، وبصماته على كوب لم يستطع تفسير وجوده.

ومع ذلك، كان ينقصه الدليل الذي يربط كل ذلك بلحظة القتل.

عاد إلى ملف إيزابيل موريس.

هذه المرة لم يقرأ الشهادات، بل قرأ ما سبقها وما تلاها. راجع أسماء الأشخاص الذين جرى استجوابهم، والتقارير الطبية، والصور القديمة، والملاحظات التي دوّنها المحقق الأول.

ثم وجد اسماً لم يكن قد منحه أهمية كافية.

أليكس ريد.

كان قد أدلى بإفادة قصيرة في التحقيق القديم، ذكر فيها أنه رأى ماركوس يغادر المبنى قبل سقوط إيزابيل بدقائق.

لكن إفادته لم تكن قد استُخدمت أساساً للإدانة. كانت شهادتا إيفلين وكلارا أكثر تأثيراً، ولم يُطلب من أليكس الحضور إلى المحكمة إلا مرة واحدة.

توقف إيثان عند تاريخ الإفادة.

كان أليكس قد ذكر أنه لم يكن قريباً من إيزابيل.

لكن إحدى الرسائل القديمة، التي عُثر عليها في أرشيف القضية، كانت تحمل عبارة كتبتها إيزابيل:

«لا أستطيع أن أظل أخفي عنه ما فعلته. سيعرف عاجلاً أم آجلاً.»

لم يكن اسم الشخص مذكوراً.

غير أن إيثان وجد في ملف آخر وثيقة تثبت أن إيزابيل وأليكس كانا أخوين غير شقيقين، وأن العلاقة بينهما كانت متوترة قبل وفاتها بفترة قصيرة.

استدعى ماركوس مرة أخرى.

جلس الرجل أمامه، وقد بدا أكثر إنهاكاً من المرة السابقة.

وضع إيثان صورة إيزابيل أمامه.

— هل كان أليكس قريباً منها؟

رفع ماركوس رأسه ببطء.

— من أخبرك؟

— أريد إجابة.

تنهد ماركوس.

ـــ كان أخاها غير الشقيق. لم يكن يحب الحديث عن ذلك.

ـــ هل كان حاضراً ليلة موتها؟

أغمض ماركوس عينيه.

ـــ نعم.

ـــ لماذا لم تذكر ذلك من قبل؟

ـــ لأنني لم أكن أريد أن أجرّه إلى القضية.

ـــ لقد قضيت سنوات في السجن بدلاً منه.

ضحك ماركوس بمرارة.

ـــ لم أكن أعرف أنه سيتركني أُدان.

صمت قليلاً، ثم تابع:

ـــ في تلك الليلة، تشاجرت إيزابيل معه. كانت تريد أن تخبر الشرطة بشيء. حاول أن يمنعها. تدخلت بينهما، فدفعني بعيداً. بعد ذلك... لم أعد

أعرف ما حدث بالضبط. سمعت صوت ارتطام، وحين التفتُّ كانت إيزابيل قد سقطت.

ـــ هل دفعها أليكس؟

لم يجب ماركوس مباشرة.

ـــ رأيته يقف عند الشرفة. كان يحدق إلى الأسفل. لم يكن يصرخ، ولم يكن يطلب المساعدة. كان ينظر فقط.

ـــ ولماذا شهدت الفتاتان ضدك؟

ـــ لأن أليكس أقنعهما بأنني المسؤول. قال لهما إنني كنت غاضباً منها ، وإنني كنت آخر من اقترب منها. لم تكونا تعرفان الحقيقة كاملة.

ـــ وهل اعتذر لك أليكس ، او قدم تبريراً؟

نظر ماركوس إلى المحقق.

ـــ لا ، بل قال لي ذات مرة إن ما حدث كان حادثاً. لكنه لم يقل ما السبب.

أغلق إيثان الملف.

لقد وجد أخيراً ما كان يبحث عنه.

لم يكن ماركوس قد عاد إلى المدينة لينتقم من الفتاتين، بل ليجبرهما على الاعتراف. ولم يكن أليكس صديقاً يحاول حمايتهما من رجل خطير، بل كان الرجل الذي أمضى خمس سنوات يخشى أن تنكشف الحقيقة التي صنعها بنفسه.

في تلك الليلة، استدعى إيثان أليكس للمرة الأخيرة.

دخل الرجل الغرفة، وجلس في مكانه المعتاد.

قال المحقق:

ـــ لقد وجدت شيئاً في ملف إيزابيل.

لم يبدُ على أليكس أي تغير.

ـــ ماذا؟

ـــ كانت أختك غير الشقيقة.

رفع أليكس عينيه إليه.

ـــ نعم.

ـــ وكنت حاضراً ليلة موتها.

لم يجب.

وضع إيثان أمامه صورة قديمة لماركوس.

ـــ ماركوس لم يكن وحده معها. لقد كنت هناك أيضاً.

ابتسم أليكس ابتسامة صغيرة.

ـــ لا أعرف ماذا تريد مني.

ـــ أريد أن أعرف لماذا تركت رجلاً بريئاً يقضي سنوات في السجن ، بدلاً منك ! .

ـــ ماركوس لم يكن بريئاً تماماً.

ـــ لكنه لم يدفع إيزابيل!!.

ـــ تابع المحقق ايثان كلامهُ .

ـــ إيفلين وكلارا عرفتا الحقيقة. كانتا تستعدان لتقديم إفادة جديدة، وكانت لديهما وثائق تثبت أن شهادتهما القديمة لم تكن صحيحة.

ـــ هذا غير صحيح.

ـــ وجدنا الرسالة في غرفة إيفلين. ووجدنا الكوب الثالث في غرفة كلارا. كما وجدنا ألياف معطفك، وبصماتك، وتسجيل دخولك إلى المنزل.

ظل أليكس ساكناً.

ثم قال:

ـــ كنت أحبهما.

لم يرد إيثان.

ـــ كنت أعرفهما أكثر من أي شخص آخر. كنت معهما في كل شيء. لم تكونا مجرد صديقتين.

ـــ فلماذا قتلتهما؟

رفع أليكس رأسه، وكانت عيناه للمرة الأولى خاليتين من ذلك الهدوء المألوف.

ـــ لأنهما قررتا أن تفعلا بي ما فعله بي ماركوس.

ـــ لم يفعل بك شيئاً.

ـــ كان سيأخذ مني كل شيء!

ضرب بيده فوق الطاولة.

ـــ إيفلين كانت تعرف !، كلارا كذلك كانت تعرف!. كانتا ستذهبان إلى الشرطة، وستقولان إنني كنت هناك، وإنني كنت السبب في سقوط إيزابيل. هل تفهم ما يعنيه ذلك؟ خمس سنوات من الصمت، خمس سنوات كنت أحاول فيها أن أعيش حياة طبيعية، ثم تقرران فجأة أن تفتحا القبر من جديد!

قال إيثان بهدوء ،

ـــ لم تكونا تفتحان قبراً. كانتا تحاولان إغلاق جريمة وقعت منذ خمس سنوات ، انهم فيها شخص بريء !! .

ضحك أليكس، ثم وضع يديه على وجهه.

ـــ لم أكن أريد أن يحدث ذلك أيضا ، ولكنها لحظة غضب .

ـــ أليكس ، هل يمكنك ان تخبرني ماذا حدث في تلك الليلة؟ ، التي ماتت فيها اليزابيل ؟..

ظل صامتاً طويلاً بينهما.

ثم بدأ أليكس يتحدث.

أخبر المحقق أنه دخل المنزل بعد مغادرة ماركوس، وأنه كان يعرف أن الفتاتين ستجتمعان هناك لمناقشة الوثائق التي عثرتا عليها. كان قد جاء معتقداً أنه يستطيع إقناعهما بالتراجع.

لكن كلارا أخبرته أن الأمر انتهى، وأنها لن تكذب مرة أخرى.

أما إيفلين، فقد وضعت أمامه نسخة من التقرير الطبي القديم، وقالت إنها ستقدمها للشرطة في الصباح.

حاول إقناعهما بأنهما لا تعرفان القصة كاملة، وأن ما حدث لإيزابيل لم يكن سوى حادث مؤسف.

لكن كلارا سألته سؤالاً واحداً:

ـــ إذا كان حادثاً، فلماذا تركت ماركوس يدفع ثمنه؟

لم يستطع الإجابة.

وفي تلك اللحظة، أدرك أن كل ما بناه خلال السنوات الخمس الماضية سينهار.

لم يقتل الفتاتين بدافع غضب عابر، بل لأنه كان يخشى أن يفقد الصورة التي صنعها لنفسه، صورة الرجل الطيب الذي نجا من ماضٍ مؤلم.

كان قد جاء إلى المنزل وفي ذهنه فكرة واحدة: إخافتهما وإجبارهما على التراجع.

لكن الخلاف تصاعد، وتحول إلى عنف، وانتهت حياة الفتاتين قبل أن يتمكن من التفكير في عواقب ما فعل.

وبعد ذلك، حاول أن يجعل الشبهة تحيط بماركوس. كان يعرف أن زيارته السابقة ستجعله المشتبه به الأول، وأن الرسائل القديمة ستبدو كدليل على تهديده للضحيتين.

لم يكن قد احتاج إلى اختراع ماضٍ جديد.

كان يكفيه أن يستغل الماضي الحقيقي.

حين انتهى أليكس من كلامه، لم يكن في الغرفة سوى صوت جهاز التكييف.

قال إيثان:

— هل تعرف ما أكثر ما يثير الدهشة في هذه القضية؟

لم يرفع أليكس رأسه.

— ماذا؟

— أن ماركوس قضى سنوات في السجن لأنه لم يستطع إثبات براءته، بينما كنت أنت تعيش بحرية لأن أحداً لم يفكر في اتهامك.

أغمض أليكس عينيه.

وبعد دقائق، اقتاده ضابطان إلى الخارج.

أُعيد فتح ملف وفاة إيزابيل موريس، وأُدين أليكس لاحقاً بتهمتي القتل العمد، إلى جانب تهم مرتبطة بعرقلة العدالة والتلاعب بالأدلة. أما ماركوس، فقد أُعيد النظر في إدانته القديمة، وبدأت الإجراءات القانونية لتبرئته.

وبعد أسابيع، عادت ناتالي إلى المنزل للمرة الأخيرة.

كان المكان خالياً من الأثاث تقريباً. بقيت بعض الصناديق قرب المدخل، وستائر الغرف تتحرك مع الهواء البارد المتسلل من النوافذ.

صعدت إلى الطابق العلوي، وتوقفت أمام غرفة كلارا.

كان المكتب قد أُزيل، لكن أثره ظل واضحاً على الأرضية. اقتربت من النافذة، ونظرت إلى الشارع الذي كان يزدحم قبل أسابيع بأشخاص يرتدون أقنعة الهالوين.

تذكرت الزهور البيضاء التي أحضرها ماركوس.

وتذكرت صوت أليكس وهو يخبرها بأنه سيأتي لاحقاً.

وتذكرت أنه حين سألته عن الفتاتين في صباح اليوم التالي، بكى قبل أن يعرف أنهما ماتتا.

لم يكن بكاؤه كاذباً تماماً.

ربما كان حزيناً عليهما بالفعل.

وربما كان أكثر حزناً على نفسه.

عند خروجها، وجدت على عتبة المنزل ظرفاً صغيراً لا يحمل اسماً. فتحته، فوجدت داخله صورة قديمة لإيفلين وكلارا وأليكس وماركوس، التُقطت قبل خمس سنوات.

كانت إيزابيل تقف في منتصف الصورة، تبتسم للكاميرا.

قلبت ناتالي الصورة، فوجدت جملة مكتوبة بخط إيفلين:

«لا أحد يعرف حقيقة الإنسان حين يكون الجميع منشغلين بالنظر إلى وجهه.»

أعادت الصورة إلى الظرف، ثم أغلقت الباب خلفها.

في تلك الليلة، أدركت أن أكثر الأقنعة إحكاماً ليست تلك التي تُصنع من البلاستيك أو القماش، بل تلك التي يرتديها الإنسان حتى ينسى، بعد سنوات طويلة، أن وجهه الحقيقي ما زال مختبئاً خلفها.

وفي لاس فيغاس، حيث يستطيع المرء أن يشتري قناعاً لكل مناسبة، ظلّت ليلة الهالوين شاهدة على حقيقة واحدة:

لم يكن الرجل الذي عاد من السجن هو من جاء لينتقم؛ بل كان الرجل الذي لم يدخل السجن قط، يخشى أن يُساق إليه أخيراً .



النـهاية .